أثر السياق اللغوي في حصول الدلالة عند علماء الإعجاز وعلماء التفسير

The Impact of the Linguistic Context in Obtaining the Denotation from the point of view of Scholars of Miracles and Scholars of Interpretation

أ. شريفة سيف اليزيدي*

الرّقم التعريفي للمقال: DOI: 019-001-017-1111/10.33705

تاريخ الاستلام: 2024.05.18 تاريخ القبـول: 2024.05.30 تاريخ النشر: جوان 2024

ملخّص: استخدم علماء القرآن السياق اللغوي في مصنفاتهم تحت عدة مسميات منها المناسبة أو التناسب، الذي يقصد به وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة. وفكرة هذا البحث تدور حول وصف استخدام علماء إعجاز القرآن الكريم وعلماء تفسير القرآن الكريم للسياق اللغوي في الحصول على الدلالة من آيات القرآن الكريم، وتفسيرها تفسيرا عميقا ينتج عنه دلالات قد لا يصل إليها القارئ دون النظر في علاقات السياق اللغوي.

وقد درس بعض العلماء السياق اللغوي (المناسبة) بين آيات القرآن الكريم وحاولوا إيجاد روابط عامة بين السور من حيث المضمون والمحتوى، وروابط خاصة أسلوبية لغوية بين نصوص الآيات القرآنية، فسورة الفاتحة-كما يرى علماء الإعجاز- اشتملت على كل أقسام القرآن الكريم، حيث تشكل الافتتاحية للمصحف الكريم، كما أنّها تحصر كل علوم القرآن، وتشير إلى كل قسم منها على سبيل التمهيد والافتتاح، ولذلك وصفت بـ(أم الكتاب). أما مفسرو القرآن الكريم فقد كانوا من أسبق العلماء الذين اهتموا بالسياق واستعانوا به للكشف عن المعنى المراد للشارع والحكم في النص القرآني، فتعاملوا مع النص القرآني معتمدين على السياق في استقراء النص القرآني، فهو يفسر بعضه بعضا، أو تفسره السنة قولا (نصًا) أو فعلا أو تقريرًا، لذلك فالمفسر يجب أن يكون على علم واسع بلغة القرآن الكريم.

وقد تناول المفسرون النص القرآني من الناحية اللغوية والدلالة فأدى إلى تحليل القرآن الكريم تحليلا نصيا (الآية-السورة- السور) وهذا التحليل النصي يعتمد على المعطيات اللغوية من تركيبة (صوتية وصرفية ونحوية) ومعطيات لغوية دلالية (لفظية وتركيبية أسلوبية) وهذا التحليل بدوره نتج عنه نمط من التحليل لم تحظ به نصوص غير القرآن الكريم، وأكد المفسرون على أهمية السياق اللغوي وعولوا عليه في فهم النص القرآني مع تفصيل واضح في مكونات السياق اللغوي.

وبالنظر في كتب التفسير لاحظنا أنَّ المفسرين ركزوا على نوعين من العلاقات اللغوية في النص القرآني، هما: علاقات الألفاظ وعلاقات التركيب، كما نجد المفسرين يتتبعون رابط التكرار بين تراكيب النص القرآني من

*- قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمارات العربية المتحدة.

البريد الإلكتروني: alkhalil.review@gmail.com (المؤلف المرسل).

حيث كونه وسيلة ربط لأجزاء الخطاب القرآني تسهم في تفسير النص والوقوف على دلالته. هكذا وعلى هذا المنوال سار المفسرون في تفسير كتاب الله العزيز متخذين من تحليل السياق اللغوي أساسًا مهمًا في تفسير نصوص القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحيّة: سياق؛ لغوي؛ قرآن؛ دلالة؛ تفسير.

Abstract: This research paper attempts to describe the use of the miracles and interpretation of the Holy Quran of the linguistic context by scholars in obtaining the significance of the verses of the Holy Quran in a way that results in connotations that the reader may not reach without considering the relationships of the linguistic context.

Research problem: The research problem is determined to explore the use of the miracles and interpretation of the Holy Quran for the linguistic context by scholars in obtaining the meaning from the verses of the Holy Quran.

Research question: the paper asks whether the scholars of miracles and scholars of interpretation of the Noble Quran use the linguistic context to obtain the significance?

Research aims: This research aims at exploring the scholars of miracles and interpretation's use of the linguistic context in obtaining the significance in the Holy Quran. Also, it explores the use of linguistic context in the interpretation of the Holy Quran. Moreover, it examines the relationship between the linguistic context and obtaining the meaning in the Holy Quran.

Research importance: The importance of the research lies in highlighting the relationship between the linguistic context and the occurrence of significance in the interpretation of the Holy Quran.

Research Methodology: the descriptive approach is used in this research.

Keywords: Context ; Linguistic; Quran; Significance; Interpretation.

1. المقدّمة: فكرة هذا البحث تدور حول وصف استخدام علماء إعجاز القرآن الكريم وعلماء تفسير القرآن الكريم للسياق اللغوي في الحصول على الدلالة من آيات القرآن الكريم، وتفسيرها تفسيرا عميقا ينتج عنه دلالات قد لا يصل إليها القارئ دون النظر في علاقات السياق اللغوي.

-**مشكلة البحث:** تتحدد مشكلة البحث في الكشف عن استخدام علماء إعجاز القرآن الكريم وعلماء تفسير القرآن الكريم للسياق اللغوي في الحصول على الدلالة من آيات القرآن الكريم.

-**سؤال البحث:** كيف استخدم علماء الإعجاز وعلماء تفسير القرآن الكريم السياق اللغوي في الحصول على الدلالة؟

-أهداف البحث:

-الكشف عن بعض الموضوعات التي استخدم فيها علماء الإعجاز وعلماء التفسير السياق اللغوي في الحصول على الدلالة في القرآن الكريم؛

-التعرف إلى كيفية استخدام السياق اللغوي في تفسير القرآن الكريم؛

-التعرف إلى العلاقة بين السياق اللغوي وحصول الدلالة في القرآن الكريم.

-أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في إبراز العلاقة بين السياق اللغوي وحصول الدلالة في تفسير آيات القرآن الكريم عند علماء الإعجاز وعلماء التفسير.

-منهج البحث:

يتبع البحث المنهج الوصفي في كشف استخدام السياق اللغوي في تفسير القرآن الكريم عند علماء الإعجاز وعلماء التفسير.

2- المبحث الأول: علماء الإعجاز: استخدم علماء القرآن السياق اللغوي في مصنفاتهم تحت عدة مسميات منها المناسبة أو التناسب، الذي يقصد به "وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة". (القطان، 1996).

وقد قسم ابن القيّم (المناسبة) السياق اللغوي إلى قسمين: "معنوية، ولفظية. فالمعنوية أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتم كلامه بما يناسبه في المعنى دون اللفظ. ومنه قوله تعالى: "وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا" (الأحزاب: ٢٥) أخبر سبحانه في فاصل الآية بأنّه قوي عزيز ليدل على أنّ تلك الريح التي أصابت المشركين ليست اتفاقا وليست هي من أنواع السحر، بل هي من إرساله على أعدائه كعادته وسنته في أمثاله من نصره لعباده المؤمنين مرة بالقتال كيوم بدر ومرة بالريح كيوم الأحزاب ومرة بالرعب كبني النضير وأنَّ النصر من عند الله لا من عنده غيره..... وأمّا المناسبة اللفظية فهي أيضًا على قسمين تامة وغير تامة. فالتامة أن تكون الكلمات مع الإبراز مقفاة. والأخرى ليست بمقفاة فالتقفية غير لازمة للمناسبة" (الجوزية).

-يقصد ابن القيم من هذا التقسيم أنَّ السياق اللغوي في القرآن الكريم يتسم بالاتساق معنويًا ولفظيًا وصولا إلى المعنى الدلالي المقصود.

وقد درس بعض العلماء السياق اللغوي (المناسبة) بين آيات القرآن الكريم فهذا السيوطي (911هـ) يفرق بين نوعين من الآيات في السياق اللغوي للقرآن الكريم، فالنوع الأول ما ذكرت فيه الآية بعد الأخرى لوجود ارتباط ظاهر بينهما وتعلق الكلام بعضه ببعض، وعدم تمامه بالأولى، أما النوع الثاني فما كانت فيه الآيات غير ظاهرة الارتباط، بل يظهر أنَّ كل جملة مستقلة عن الأخرى، وهنا يبدأ بتفصيل الروابط المحتملة بين هذا النوع من الآيات، أي أنَّ على المفسر أن يحاول اكتشاف العلاقات والمناسبات بينهما، فإذا كانت الجملة في النوع الثاني من الآيات معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم، فلا بد من أن

تكون بينهما جهة جامعة، كقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (الحديد: ٤) نجد التضاد بين يلج ويخرج، وينزل ويعرج، وشبه التضاد بين السماء والأرض (السيوطي، 2003).

وقد حاول علماء الإعجاز إيجاد روابط عامة بين السور من حيث المضمون والمحتوى، وروابط خاصة أسلوبية لغوية بين نصوص الآيات القرآنية، حيث إنّها تمثل المدخل الأساسي للنص القرآني كما يتبين من اسمها (الفاتحة) أو (أم الكتاب).

فسورة الفاتحة-كما يرى علماء الإعجاز- اشتملت على كل أقسام القرآن الكريم، حيث تشكل الافتتاحية للمصحف الكريم، كما أنّها تحصر كل علوم القرآن، وتشير إلى كل قسم منها على سبيل التمهيد والافتتاح، ولذلك وصفت بـ(أم الكتاب)؛ فالتوحيد يأتي من أول سورة الفاتحة إلى قوله تعالى: "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" (الفاتحة: ٤)، ثم تأتي الأحكام في قوله تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" (الفاتحة: ٥) ثم التذكير من قوله تعالى: "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" (الفاتحة: ٦) إلى آخر السورة، وقد أدى انحصار أقسام القرآن الكريم في هذه العلوم الثلاثة إلى كشف العلاقات العامة بين الفاتحة والقرآن كله. لكنَّ العلاقات العامة ليست بديلا عن العلاقات الخاصة التي توجد بين سورة الفاتحة، وسورة البقرة، وهذه العلاقة الخاصة هي علاقة أسلوبية لغوية تتمثل في أنَّ سورة الفاتحة تنتهي بالدعاء "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" (الفاتحة: ٦-٧) وهذا الدعاء يجد الإجابة عليه في أول سورة البقرة " الٓمٓ (1) ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ" (البقرة: ١- ٢) ويكون النص على ذلك متصلا (العموش، 2008)، كأنّهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم : ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو (الكتاب) (السيوطي، 2003). وهكذا كما نرى فإنَّ علماء الإعجاز استخدموا السياق اللغوي في الوصول إلى العلاقات الدلالية بين الآيات القرآنية بل سور القرآن كلها.

3 -المبحث الثاني: علماء التفسير: لقد كان المفسرون من أسبق العلماء الذين اهتموا بالسياق واستعانوا به للكشف عن المعنى المراد للشارع الحكم في النص القرآني، فالتفسير تعامل مع النص القرآني يعتمد على السياق في استقراء النص القرآني، فهو يفسر بعضه بعضا، أو تفسره السنة قولا (نصًا) أو فعلا أو تقريرًا، لذلك فالمفسر يجب أن يكون على علم واسع بلغة القرآن الكريم، فهذا أبو حيان (745هـ) يقول: "........اعلم أنّه لا يرتقي على التفسير ذروته، ولا يمتطي صهوته، إلا من كان متبحرًا في علم اللسان، ومرتقيًا إلى رتبة الإحسان.....، وأما من اقتصر على غير هذا من العلوم، أو قصّر في إنشاء المنثور والمنظوم، فإنّه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب، وعن إدراك لطائف ما تضمنه من العجب العجاب...." (الأندلسي، 1990).

وقد تناول المفسرون النص القرآني من الناحية اللغوية والدلالة فأدى إلى تحليل القرآن الكريم تحليلا نصيا (الآية-السورة- السور) وهذا التحليل النصي يعتمد على المعطيات اللغوية من تركيبة (صوتية وصرفية ونحوية) ومعطيات لغوية دلالية (لفظية وتركيبية أسلوبية) وهذا التحليل بدوره نتج عنه نمط من التحليل

لم تحظ به نصوص غير القرآن الكريم، وأكد المفسرون على أهمية السياق اللغوي وعولوا عليه في فهم النص القرآني مع تفصيل واضح في مكونات السياق اللغوي (الطلحي).

وبالنظر في كتب التفسير نلحظ أنَّ المفسرين ركزوا على نوعين من العلاقات اللغوية في النص القرآني، هما: علاقات الألفاظ وعلاقات التركيب.

3-1- علاقات الألفاظ: من ذلك مناسبة الفاصلة لمحتوى الآية التي كانت الفاصلة فاتحة لها مثال ذلك قوله تعالى: "وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا" (الأحزاب: ٢٥)

قال الزركشي: " فإنَّ الكلام لو اقتصر فيه على قوله : (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) لأوهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفار في اعتقادهم أنَّ الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم، ولم يبلغوا ما أرادوا، وأنَّ ذلك أمر اتفاقي، فأخبر سبحانه في فاصلة الآية عن نفسه بالقوة والعزة ليعلّم المؤمنين، ويزيدهم يقينًا وإيمانًا على أنّه الغالب الممتنع..." (الزركشي، 1980) فقطع الكلام عند قوله تعالى: (....الْقِتَالَ) يوحي إلى بعض الضعفاء بأنَّ الريح التي أتت على الكفار هي التي كانت سببا في رجوع المؤمنين عن القتال، ولكن بإكماله تعالى الآية الكريمة بالفاصلة (وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) يقطع على الكفار وغيرهم وهمهم فيقرر سبحانه في فاصلة الآية بأنّه هو القوي العزيز الذي أرسل الريح بأمره وتدبيره ليغلب المؤمنون الكفار دون قتال، فهذه الفاصلة جاءت ألفاظها لتناسب محتوى الآية فلا يضطرب فهمها.

كذلك يتضح اهتمام المفسرين بعلاقات الألفاظ في تفسير لفظ (النار) في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: "إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (النمل: ٧- ٨)

يقول الزمخشري (ت538): " الشهاب: الشعلة، والقبس: النار المقبوسة.... والخبر ما يخبر به حال الطريق لأنّه كان قد ضله" (الزمخشري) يتبين لنا من تفسير الزمخشري بأنَّ موسى عليه السلام قد ضل طريقه، فلما رأى النار فرح بها واعتقد أنّه ربما يجد عليها من يدله على الطريق وهذا واضح من قوله (سآتيكم منها بخبر).

ويقول أبو حيان الأندلسي: " وكان الطريق قد اشتبه عليه والوقت بارد والسير في ليل فتشوقت نفسه إذ رأى النّار إلى زوال ما لحق به من إضلال الطريق وشدة البرد فقال سآتيكم منها بخبر أي من موقدها بخبر يدل على الطريق أو آتيكم بشهاب قبس أي إن لم يكن هناك من يخبر فإنّي أستصحب ما تدفئون به منها..." (الأندلسي، 1990)

نلاحظ أنَّ النّار في تفسير أبي حيان تحمل دلالتين: الأولى تدل على الهداية إلى الطريق، والثانية تدل على مصدر الدفء. كما نجدها في موضع آخر تدل على وسيلة لجذب موسى عليه السلام إلى ذلك المكان المقدس، وذلك في قوله تعالى: "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ 11 إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى" (طه: ١١- ١٢) فسّرها أبو حيان فقال: " قال الماوردي كانت عند موسى نارا وكانت عند الله نورا، وقيل : خيل له أنها نار" فخيال النار بالنسبة لموسى جذبه إلى ذلك المكان بسبب حاجته إلى النار في ذلك الموقف. يتضح مما سبق

أنَّ النار في قصة موسى عليه السلام دلته على عدة معان سياقية وضحتها علاقات ألفاظ النص القرآني الكريم (عيسوي، 1995).

ومن اهتمام المفسرين بعلاقات الألفاظ أيضا تفسير العلاقة بين (أفل وبزغ) في قصة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: "فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ 76 فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ" (الأنعام:٧٦-٧٧) جاء اسم الفاعل (بازغًا) للدلالة على الابتداء في الطلوع (الزمخشري)، " يقال بزَغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع والبَزْغ الشق؛ كأنه يشق بنوره الظلمة " (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1997)، و(أفَل) أي انتقل مع خفاء واحتجاب (الزمخشري).

فنلاحظ أنَّ بين اللفظين (بزغ) و(أفل) مقابلة في المعنى بما يدل على الغياب بعد الطلوع، وبهذه المقابلة ينتفي للعقل عبادة هذه الأشياء حيث أنَّ قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون النجوم ويعظمونها، فكان ذلك التقابل في المعنى حجة على عبادتهم ما لا يجوز أن يكون رباً لتغيره من حال إلى حال.

كذلك في قصة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : "إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (الأنعام: ٧٩) جاء الفعل (وَجَّهْتُ)، وتلاه الاسم (ه) فنلاحظ أن بين هذين اللفظين تجانسًا صوتيًا أضفى على السياق اللغوي للآية الكريمة لونًا من الجمال الصوتي، إضافة إلى دلالة الفعل في صيغته فعّلتُ على التكثير، ودلالة الاسم (وَجْهِيَ) على أظهر ما يعرِف به الإنسان صاحبه؛ فتلاءم لفظ الوجه مع الفعل (وَجَّهْتُ) الذي يدل على القصد في العبادة والتوحيد إلى الله وحده، وهذا التلاؤم جاء في ناحية البنية الصوتية، والصرفية، والدلالة المعنوية أيضًا (عيسوي، 1995).

2-3- علاقات التركيب: توغل أبو حيان الأندلسي بعمق في تفسيره لآي القرآن الكريم مفصلا لمكونات السياق اللغوي ومتتبعًا لدلالتها، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" (يوسف: ٢٤) يقول: " طول المفسرون في تفسير هذين الهمين ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همٌّ بها البتة بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول لقد قارفت لولا أنْ عصمك الله ولا تقول أنَّ جواب لولا متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك... بل نقول أنَّ جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب أنت ظالم إن فعلت فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم ولا يدل قوله أنت ظالم على ثبوت الظلم بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل وكذلك هنا التقدير لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها فكان موجد الهمّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمّ... والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب... وقد طهرنا كتابنا هذا عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره واقتصرنا على ما دلّ عليه لسان العرب ومساق الآيات التي في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين " (الأندلسي، 1990)

يتبين من ذلك أنَّ نفي (الهمّ) عن يوسف عليه السلام يبينه السياق اللغوي في التركيب؛ فوجود (بُرْهَانَ رَبِّهِ) نفى وقوع (الهمّ) عن يوسف عليه السلام وبذلك تظهر براءته.

كما نجد في تفسير قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (الأنعام: ٧٤) (أَتَتَّخِذُ) أسلوب استفهام يحمل معنى الإنكار (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن) كما دل الفعل (تتخذ) في السياق اللغوي لأسلوب الاستفهام على لين الجانب في خطاب إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر؛ حيث أن قوله (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً) أخف وطأة من قوله أتكفر بالله أو أتشرك بالله (عيسوي، 1995).

ويقول تعالى في قصة موسى عليه السلام وفرعون: "قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ" (الشعراء: ١٨) نجد أن فرعون يمن على موسى عليه السلام بالتربية (الأندلسي، 1990) والملاحظ من صيغة الاستفهام (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا) أنها تستلزم الإقرار من قبل المخاطب، وبذلك تتحول دلالة التركيب في سياقها اللغوي من الاستفهام إلى التقرير.

كذلك في قوله تعالى: " وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ" (الزمر: ٧١) وقوله تعالى : "وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ" (الزمر: ٧٣) نجد في تفسير الآيتين الكريمتين أنَّ الأولى جاءت لتصف موقف الكفار يوم القيامة حين يساقون إلى نار جهنم بسرعة وعنف حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها " كسائر أبواب السجون فإنّها لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها فيفتح ثم يغلق عليهم " (الأندلسي، 1990) بينما الآية الثانية يصف سبحانه وتعالى موقف المؤمنين يوم القيامة حيث يساقون إلى الجنة مسرعين راكبين وقد فتحت أبواب الجنة لهم، لأنَّ "أبواب الأفراح تكون مفتوحة لانتظار من يجيء إليها بخلاف أبواب السجون" (الأندلسي، 1990) فالفرق في تركيب الآيتين هو وجود حرف الواو في الآية الثانية (وَفُتِحَتۡ) وبذلك أصبحت الجملة حالية (الأندلسي، 1990) للتفرقة بين حال الكفار عند وصولهم إلى جهنم وحال المؤمنين عند وصولهم إلى الجنة؛ فعدم وجود الواو قبل (فُتِحَتۡ) في وصف الكافرين يدل على أن جهنم كانت محكمة الإغلاق كحال السجون، بينما وجود الواو قبل (فُتِحَتۡ) في وصف المؤمنين جعل الجملة حالية لتدل على أنَّ أبواب الجنة مفتّحة لاستقبال المؤمنين قبل وصولهم إليها فرحاً بهم؛ فهذا الاختلاف التركيبي في السياق اللغوي للآيتين أدى إلى اختلاف في الدلالة فرّق بين تفسير الآيتين الكريمتين.

كما نجد المفسرين يتتبعون رابط التكرار بين تراكيب النص القرآني من حيث كونه وسيلة ربط لأجزاء الخطاب القرآني تسهم في تفسير النص والوقوف على دلالته، ومن ذلك ما حلّله الرازي (604هـ) من ورود التكرير في آيتين مختلفتين من سورة البقرة هما قوله تعالى: " فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ" (البقرة: ٣٦) وقوله تعالى : "قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ" (البقرة: ٣٨)

يقول الرازي:" أنَّ آدم وحواء لما أتيا بالزلّة أمراً بالهبوط فتابا بعد الأمر بالهبوط ووقع في قلبهما أنَّ الأمر بالهبوط لمّا كان بسبب الزلة فبعد التوبة وجب أن لا يبقى الأمر بالهبوط فأعاد الله تعالى الأمر بالهبوط مرة ثانية ليعلما أنَّ الأمر بالهبوط ما كان جزاء على ارتكاب الزلة حتى يزول بزوالها بل الأمر بالهبوط باق بعد التوبة لأنَّ الأمر به كان تحقيقا للوعد المتقدم في قوله تعالى:".... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةَ...." (البقرة: ٣٠) (الرازي، 1981) نلاحظ من قول الرازي أنَّ تكرار الأمر بالهبوط (ٱهۡبِطُواْ) من الجنة لم يكن عقوبة عن الزلة، فتكرر الأمر لإعلامهما (ليعلما) بأنَّ أمر الهبوط باق، وقد كان إحداث هذا العلم عن طريق أسلوب لغوي هو تكرار الأمر.

هكذا وعلى هذا المنوال سار المفسرون في تفسير كتاب الله العزيز متخذين من تحليل السياق اللغوي أساسًا مهمًا في تفسير نصوص القرآن الكريم.

خاتمة:

- يُعد موضوع السياق اللغوي من الموضوعات اللسانية التي حظيت باهتمام كبير لدى الباحثين اللسانيين على اختلاف مدارسهم واتجاهاتهم العلمية؛

-فهذا البحث في مجمله يسعى إلى الوقوف على استخدام السياق اللغوي عند علماء الإعجاز وعلماء تفسير القرآن الكريم؛

-وتتلخص نتيجة البحث في أهمية استخدام السياق اللغوي عند علماء الإعجاز الذين أوجدوا روابط عامة بين السور من حيث المضمون والمحتوى، وروابط خاصة أسلوبية لغوية بين نصوص الآيات القرآنية.

-أما مفسرو القرآن الكريم فقد تعاملوا مع النص القرآني معتمدين على السياق في استقراء آياته، فتناولوه من الناحية اللغوية والدلالية، فأدى ذلك إلى تحليل القرآن الكريم تحليلا نصيا (الآية-السورة- السور) وهذا التحليل النصي يعتمد على المعطيات اللغوية من تركيبة (صوتية وصرفية ونحوية) ومعطيات لغوية دلالية (لفظية وتركيبية أسلوبية) وهذا التحليل بدوره نتج عنه نمط من التحليل لم تحظ به نصوص غير القرآن الكريم، وأكد المفسرون على أهمية السياق اللغوي وعولوا عليه في فهم النص القرآني مع تفصيل واضح في مكونات السياق اللغوي؛

- وبالنظر في كتب التفسير لاحظنا أنَّ المفسرين ركزوا على نوعين من العلاقات اللغوية في النص القرآني، هما: علاقات الألفاظ وعلاقات التركيب، كما نجد المفسرين يتتبعون رابط التكرار بين تراكيب النص القرآني من حيث كونه وسيلة ربط لأجزاء الخطاب القرآني تسهم في تفسير النص والوقوف على دلالته؛

- وهكذا اتخذ علماء الإعجاز والمفسرون من تحليل السياق اللغوي أساسًا مهمًا في تفسير نصوص القرآن الكريم.

المصادر والمراجع:

1. أبو تمام أحمد عيسوي، السياق اللغوي في القصص القرآني، الاسكندرية، 1995م.
2. أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط (الإصدار ج7)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1990م.
3. خلود العموش، الخطاب القرآني (المجلد 1)، جدارا للكتاب العالمي، عمّان، الأردن، 2008م.
4. الرازي، التفسير الكبير، (الإصدار ج3، المجلد 1)، الصاوي، دار الفكر، بيروت، 1981م.
5. ردة الله الطلحي، دلالة السياق، د ت.
6. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار التراث، القاهرة، 1980م.
7. الزمخشري، الكشاف (الإصدار ج3)، دار الفكر، بيروت، د ت.
8. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (الإصدار ج4،، المجلد ط1). (محمود القيسية ومحمد أشرف الأندلسي، المحرر)، مؤسسة النداء،أبوظبي، الإمارات، 2003م.
9. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (المجلد 1). (عبد الرزاق المهدي، المحرر)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997.
10. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (الإصدار ج7). د ت.
11. ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوقة، د ت.
12. منّاع القطان، مباحث في علوم القرآن (المجلد 2)، مكتبة المعارف،الرياض، 1996م.